هل السعادة موروثة كما الجينات؟

نظريات ودراسات كثيرة حاولت التوصل إلى معرفة أسباب تعاسة الناس بطرق عقلانية تحليلية، وإذا كانت أسباب هذه التعاسة لها علاقة بالناحية البيولوجية أو بسبب الأخطاء أو لها علاقة بأفعال من الماضي؛ فهل يمكن أن تنتقل التعاسة عن طريق الجينات مثلاً، تماماً كما تنتقل السمات؟. وهل السجية شيئاً مختاراً اختياراً مطلقاً أم ينطلق من معطيات سابقة؟. "أسئلة يحاول البعض من خلالها معرفة سبب ألمهم: كيف، ومن أين، وما يعنيه، وكيف يؤثر في حياتهم ويتحكم بها. وهم يحتاجون لبذل الجهد كي يبدلوا شعورهم، ويقرروا عدم التصرف بسلبية. وللمضي قدماً بحياتهم عليهم أن يروا أن الأدوات التي أنقذت حياتهم في الماضي، هي القيود التي تكبلهم. وينبغي أن يتوفر لديهم الإيمان والإرادة والشعور بأنه من الممكن أن يتخلصوا من هذه القيود ليتحسن حالهم في نهاية الأمر... الكل يتمنى أن يتحرر من الماضي المؤلم، أو من تاريخ عائلته حين يكون مأساوياً. فنتائج المصائب الماضية التي ترافقنا نود لو يكون لا علاقة لنا بها".[102]
فهل يمكن أن يتخلص الإنسان بفضل الإرادة من تبعات الماضي؟

لقد أوضح بول ريكور وجود تبادل بين الإرادي وغير الإرادي. فأنا حين أقبل أو أرفض شيئاً موجوداً أقبل هذا الاختيار، ولا تتجلى حريتي الشخصية إلا في طراز قبولي أو رفضي؛ قد يتفق تماماً أن تكون اتجاهات سجيتي منقوشة في الجينات التي أدين لها بحياتي... وعلى هذا النحو يمكن أن نعلي من شأن نصيب السجية في نشأة المواقف الأخلاقية الأساسية قدر ما نُعلي، ولكن ذلك لا يحول دون أن

[102]- ذاكرة الجسد ص 118.

تكون هذه المواقف أموراً نختارها اختياراً... رغم تدخل في هذا الاختيار ارتكاسات عميقة على الحوادث التي أعيشها بعمق، على الوسط الذي يجري فيه وجودي، على الكائنات البشرية التي أرتبط بها أوثق الارتباط".[103]

حتى قبل أن يولد الإنسان يمكن أن تتحدد معالم شخصيته، وربما مقدار رفاهيته ومصيره في المستقبل ومن الطبيعي أن " تتأثر صحة الطفل النفسية بتصرفات الأم، وعلى الأخص في السنوات القليلة قبل ولادته. والحقد الذي قد تحمله الأم في صدرها خلال فترة الحمل يعتبر في الحقيقة سبباً في إصابة الطفل بمرض في الأعضاء الموزعة في الرأس، فقد يتطور خلل بالنظر أو السمع. والمصيبة التي تتعرض لها الأم خلال فترة الحمل تجعل الطفل حساساً سريع التأثر. كما أن ذنوب الأم أو أفعالها السيئة تحدد مصير وصحة طفلها القادم. وكذلك الأب يؤثر بقوة على حياة الطفل. فالوالدان ينقلان إلى الأولاد معلومات كاملة مطلقة عن تصرفاتهم وسلوكهم وسلوك أجدادهم، ومن هذه المعلومات المتوارثة يتشكل مصير الطفل، ويتكون جسده وطبعه وروحانيته".[104] وإذا سلمنا بمصداقية هذه النظريات يمكن أن نقول أن تاريخ الإنسان يبدأ قبل أن يتشكل في رحم أمه.

" عندما ندرس وجود شخص ما، لا بد من العودة إلى الطاقة "الخلاقة" ذاك الواقع الذي جعل فكرة إنجابه تظهر في فكر والديه وتاريخهما كي يصبح موجوداُ في لحظة ما حتى قبل أن يُصنع. هذا القول يبدو غريباً ! ولكن من الحكمة أن نبدأ إعادة هذه القراءة انطلاقاً من الأشهر التي سبقت الحمل. فإذا كان الكل متفقاً تقريباً على أن ما يجري خلال المرحلة الجنينية جوهري وأساسي، إلا أن قلة هم من يتخيلون أن الفترة التي تسبق الحمل، الفترة التي حلم فيها الوالدان بإنجاب طفل تلعب دورا هاماً في بناء الشخص وتكوينه. كيف كان والدانا يحلمان بنا؟ وهل حلما بنا؟ وما المشروع الذي وضعاه للطفل الذي سيولد. فقبل أن يصبح لنا

---

[103]- المواقف الأخلاقية ص 10- 11.

[104]- الكارما ص 22.

وجود فعلي بيولوجي حلم بنا أهلنا وتخيلونا، وحين نولد، نولد محملين بهذه الأحلام، وهذه الصور التي شكلوها لأشهر وسنوات، نحن نأتي من مخيلة أهلنا، من عالمهم الفكري والنفسي، ومن وجودهم الخاص، المثقل هو نفسه بالعديد من المعايير الواعية أو اللاواعية والتي ينقلوها إلينا و تنطبع في ذاكرتنا حتى قبل أن نولد، نحن كلنا نحمل إرثاً عائلياً متفاوت الثقل، إرث ندركه نسبياً ويرمي بثقله على حياتنا رغماً عنا، كأسرار العائلة، أوامر الأهل، التكيف التربوي، المبادئ والطقوس، كل هذه الأحداث تبقى في لا وعينا".[105]

إذا كانت الجينات تنقل لنا لون البشرة والعينين والشعر وكل الصفات الخَلقية، لن يكون من المستغرب أن تنقل أيضاً الأحزان أو السعادة، الوداعة أو العنف؛ لا يوجد اليوم خلاف علمي كبير حول الإسهامات الواضحة واقعياً للوراثة في كل عنصر من عناصر الكائن الحي، وهذه حقيقة أصبحت مقبولة على نطاق واسع بالنسبة لمعظم الظواهر السلوكية. ومن الملفت هذا الاتصال بين الخلايا – والذي يظل من أكبر أسرار العِلم – ويعمل بطريقة مذهلة؛ بعض الدراسات تشير إلى وجود موجات إشعاعية تؤثر على الخلية.

"إذا ما افترضنا أن كل جزئية تبث موجة كهرمغناطيسية محددة تلتقطها الجزئية المتلقية عن طريق الصدى، تماماً كما يلتقط جهاز الراديو موجة "أف أم". (الكسندر غورفيتش)– عالم بيولوجيا روسي وضليع أيضاً بالفيزياء – دهش علماء العالم عندما نشر نتائج تجاربه على ما يسميه الأشعة الميتوجينية ، الخيطية الجينية أو الوراثية؛ وبعد ذلك فإن العشرات من الباحثين أكدوا صحة اكتشافاته، عن طريق أجهزة قياس أكثر دقة. وثبت من هذه التجارب أن أعراض التهابات وتسممات كيميائية يمكن أن تنتشر عن طريق الموجات التي تبثها

[105]- ذاكرة الجسد. ص 53.

الخلايا دون احتكاك مباشر. ما معناه أن الخلايا تبث تياراً مشعاً ثابتا وبأن هذا التيار يتغير عند دخول أحد الفيروسات إلى الخلية التي تبدأ عندئذ بالانشطار إلى موجات تنتهي بموت الخلية بشكل شبيه بتصاعد صرخات الألم عند الحيوان. والحمض النووي كما يراه العالِم هو قبل كل شيء مستقبل ومرسل لموجات كهرمغناطيسية متماسكة نوع من لايزر بيولوجي حقيقي".[106]

الكثير من الدراسات التي يقوم بها علماء الطاقة تحاول الدمج بين إدراك الضمير والصحة الفيزيائية، فعلاقة الناس مع بعضهم البعض بما فيها من محبة أو انفعال أو غضب كلها تؤثر على الأبنية الحقلية أو ما يسمى (الكارما)، وهذه الأحاسيس تصبح قوية ومؤثرة، إلى درجة أنها قد تؤثر على الأبناء والأحفاد، وبالتالي كلما كانت الروح منهارة كلما تدهورت في المستقبل صحة الأحفاد الفيزيائية والروحانية.

" يفترض قانون (الكارما) أن لأي فعل متعمد نتيجته الخاصة التي تلاحق الفاعل حتى في ما بعد الموت، وتؤمن ديانات الهند جميعاً بقوة تأثير الكارما – أي تأثير الفعل– كما تؤمن بالنفس أو الروح التي تنتقل مع أفعالها من ميلاد إلى آخر. وعندما تنشط الجزئيات التي تألف أعضاء الذهن والجسم والكلام فإنها تُحدث ذبذبات (يوجا) في الروح، وتجذب المادة الكارمية التي تملأ المكان. وإذا كانت الروح تحركها الانفعالات الطاغية كالولع والنفور وتنغمس في أفعال شريرة، فإن المادة الكارمية تمتصها الروح كما تمتص الملابس المبتلة الغبار. وعلى سبيل المثال: إخفاء المعرفة خوفاً من الحسد يجذب الكارما التي تعمل على غموض المعرفة، التي ستؤدي بدورها إلى نقص في ذكاء ذلك الشخص عند نضوج تلك الكارما. والرحمة والإشفاق على الذات سوف يظهران الكارما التي تنتج الشعور الذي يتسبب في إحداث مشاعر سارة ومشاعر غير سارة على التوالي، والانفعالات الحادة والطاغية تُحدث الكارما المضللة للسلوك والتي تُحدث بدورها

---

[106]- الخطر الخفي ص 230 – 232.

نقصاً في مقاومة الأفعال الشريرة. ويُقال أن ذم الآخرين ومدح الذات هو الذي تنتج عنه الكارما التي تخلق الأوضاع الاجتماعية المتدنية، أما الكارما المعوقة فهي تقف حجر عثرة في طريق نجاح أي مشروع. وتظل الكارما التي جاءت على هذا النحو مغروسة داخل الروح – إن صح التعبير – أحياناً لبضع لحظات فحسب وأحياناً تستمر دهراً منتظرة حتى يأتي وقت نضجها، ثم تمتصها مرة أخرى سلسلة جديدة من الانفعالات لأفعال"[107] هذا موضوع معقد ولكن أصبح جلياً عند علماء البيولوجيا أن القصة الحقيقية لتطور الإنسان محفورة في المادة الوراثية للخلية، إذ بها سر الحياة.

" الهندوس يرفضون أكل اللحمة لأنها تحتوي على الدم الذي يعتبر برأيهم حافظاً للمعطيات عن حياة الجسم الفيزيائي، وتضم هذه المعطيات جميع المعلومات عن أمراض هذا الجسد وأحاسيسه وكذلك الانفعالات التي تعاني منها الحيوانات خاصةً عند الذبح... لقد كان أجدادنا أكثر وعياً وعلماً عما نحن عليه اليوم، فلقد كانوا يتضرعون إلى الله ويصلون ويطلبون العفو والمغفرة قبل قيامهم بذبح الحيوانات، اعتقاداً بأنهم يحاصرون بذلك جميع النتائج السلبية التي يقوم الناس بفعلها من دون أي تفكير. وكذلك تبين أن المعلومات تدخل أثناء الطعام بكل سهولة إلى الضمير، وعلى هذا المبدأ وجدت في الماضي طقوس القرابين، وإذا كان الكاهن يفكر أثناء عملية تقديم القرابين بأعماله ومشاكله الأرضية فإن ذلك لا يُعتبر قرباناً بحال من الأحوال. توجد في كل إنسان نفس وفطرة وشيء ما إنساني وحيواني، ويجب أن يحصل الجسد في الحالة العادية على غذائه من النفس، والنفس من الروح، والروح من الرب. ولا يُسمح بإلغاء أية حلقة من هذه السلسلة،

[107]- المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص 228.

فالحياة موضوعة وفق مبدأ البدائية بإشباع الجسد فقط بالطعام من دون التفكير بالأمور الأخرى"[108].

ويقول فيثاغورس: " يبغض الله الأشياء الدموية، وإهراق الدماء تدنيس للأشياء الأكثر سمواً.

ليس لنا الحق أن نشك بأن الحيوانات لديها أرواحاً، الشيء عينه كما للإنسان، لهذا السبب وخشية أن يتغلب الهوى على تقواك، أحذرك، لا تُكره أرواح المخلوقات الشقيقة على إخلاء مكانها بقتل آثم، ولا تدع أن تُرضي حياة على حساب حياة أخرى. وكما يقول أورفيوس: الدم هو الحياة، إنه هبة من الله في الأعالي. من أجل ذلك لا يجب إهراق دم أي مخلوق. الحيوانات لها الحق كي تعيش مثلما يمتلك الرجال هذا الحق. ولا ينبغي على أخ أن يهرق دم أخيه الإنسان، لأن هذا العمل بغيض في نظر الله والإنسان. – ويقول أيضاً– لا يوجد شر يمكنه أن يكون أسوأ من العنف. إن أمد الإصلاح المتأثر بالعنف وسفك الدماء ينجز القليل وهو ذو أمد قصير... بالعنف وسفك الدماء تدخل الشرور الجديدة للمجتمع وهي مهلكة أكثر من الشرور الأخرى التي أُخمدت... يحتوي العنف وسفك الدماء البذور للكوارث المستقبلية التي لا تنتهي أبداً".[109]

هذا الكلام ليس مجرد أوهام أو سفسطة، فالعلم اليوم لا ينفي أن هرمون الأدرينالين يسبب ردود فعل عنيفة، فتتسارع دقات القلب وتتقلص العضلات، وهذا الهرمون يرتفع بشكل واضح في دم الأشخاص الذين يكثرون من تناول اللحوم، فالحيوان حين يشعر بخطر الذبح يصاب بالذعر وتتقلص عضلاته وترتفع نسبة الأدرينالين في دمه، وحين يتناول الإنسان اللحم يكون قد أخذ نسبة عالية من هذا الهرمون.

---

[108]- الكارما ص 149.

[109]- سلسلة الحقيقة الخالدة ص 94- 168.

ونظرية أخرى تؤكد " بأن أكل اللحم يثير أكثر ما يثير الأعصاب السمباتوية، فيزداد إفراز الغدة الدرقية هرمونها المحرك، ويزيد المزاج نشاطاً وعزماً ومهاجمة، في حين أن الغذاء النباتي يثير أكثر ما يثير مجموعة العصب التائه الذي يعصب الغدد التي تفرز الإنسولين و الشولين ويهدئ المزاج ويميزه بالجنوح إلى المسالمة.

جميع النساك على أساس عقلي أو ديني يمتنعون عن أكل اللحم، ونضرب لذلك مثلاً المهاتما غاندي الذي بدل بمبادئه وتعاليمه التي اكتسبها من نهج تغذيته وجه التاريخ في بلاده الهند وفي الكثير من بلاد العالم"[110].

"وعن الإمام الرضا في الرسالة الذهبية، قال: "الإكثار من أكل لحوم الوحش والبقر يورث تغير العقل وتحير الفهم وتبلد الذهن وكثرة النسيان". وأبن إسحاق قال: من تملأ من الطعام ساء غذاء بدنه، وأشرت نفسه، وقسا قلبه، فإياكم وفضول الطعام فإنه يوسم القلب بالقسوة ويصم الأذن عن سماع الموعظة"

وعن الإمام الصادق " البطن إذا شبع طغى"."[111]

مواضيع لا يسعنا الإحاطة بما تحمله من نظريات، وكل ما نريد قوله في هذا الموضوع هو الصلة ما بين هذه الأفكار وما بين الاستقرار النفسي والسكينة التي طالما قيل عنها أنها السبيل الأول لتحقيق السعادة.

أو كما جاء على لسان بوذا قبل آلاف السنين: "إن كل الآلام والأمراض التي تصيب الإنسان في الدنيا هي نتيجة أخطائه وشهواته وإهماله"[112]

---

[110]- أخطاء التمدن في التغذية ص 273- 272.

[111]- طب الأئمة ص 251 – 253-255.

[112]- أخطاء التمدن في التغذية ص 7.